

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية

أَفَانِين

في اللُغَة وَالأَدب وَالثَقَافَة



أعمال مُهداة للأستاذ الدكتور

صالح أزوكاي

تنسيق:

دة. رابعة سوساني وَد. مصطفى مامونى علوي

مخطوطات الصحراء والساحل المهملة أو المهددة بالاندثار

أتيليو گاوديو
ترجمة وتعليق: د. المهدي السعيدي
جامعة ابن زهر - أگادير

مقدمة:

صادفت خلال بحثي في مجال التراث المغربي المخطوط، هذه المقالة[1] المهمة للباحث والصحفي الإيطالي الشهير أتيليو گاوديو، وقد استرعى انتباهي ما ورد فيها من معلومات عن خزائن المخطوطات في الصحراء المغربية، خاصة في منطقتي طاطا وأقا وفم زگيض، والمعلومات القيمة التي عرضها عن بعض تراث المنطقة، كما أثارني الحماس الذي تحدث به الكاتب عن مجال المخطوطات في صحراء غرب إفريقيا ومنطقة الساحل، وضرورة فهرستها وصيانتها وتيسيرها للباحثين حتى يستفيدوا منها، وعزمه تأسيس منظمة دولية يكون كل ذلك من مهامها، غير أن وفاته المفاجئة أوقفت كل تلك المشاريع الطموحة.

كما دفعني ما حفل به المقال من معلومات دقيقة، ورؤى معرفية، ومنهجية واضحة، لترجمته إلى اللغة العربية، إسهاما في النقاش الذي انطلق منذ عقود ومازال مستمرا حول المخطوطات، وسبل صيانتها، وحفظها وفهرستها، وإتاحتها للباحثين، للاستفادة منها، وإخراج ما تحفل به مآثر التراث الغني الغميس.

نشر هذا المقال ضمن أعمال أربع ندوات أشرف الأستاذ گاوديو على تنظيمها، ودعوة الباحثين والمهتمين الأوربيين والأفارقة لحضورها، وإغنائها بأبحاثهم ودراساتهم، وشارك بها بأبحاث دقيقة رصينة، منها هذه المقالة، التي يشرفني أن أسهم بها في هذا الكتاب التكريمي لأستاذنا الدكتور صالح أزوكاي، وهو المهتم بالتراث وبالمخطوط، وكل ما يتعلق بهما، راجيا أن يكون عرفانا بالجميل من أحد تلاميذه الأوائل بالكلية

[1] ترجم هذا المقال بإذن خطي خاص من السيدة إيميليا كريسبي گاوديو، أرملة الكاتب وصاحبة حقوق المؤلف.

في الفوج الأول لشعبة اللغة العربية للسنة الجامعية 1984-1985، وتعبيرا عن الشكر الجزيل للمجهود الذي بذله في تدريسنا مادة النقد الأدبي القديم، في تلك الظروف الصعبة لانطلاق الكلية، غير أنها كانت مع ذلك انطلاقة طيبة رائعة بحضور أمثاله من الأساتذة الغُيُر المتحلين بالصبر والمثابرة والتضحية، مما كان له أثر جميل في نفوسنا، ودفعنا للدأب في الدراسة والتحصيل، فله هذه التحية بمناسبة تقاعده الإداري، وتفرغه للبحث والتأليف.

ولا يفوتني أن أنوه في ختام هذا التقديم بالسيدة إيميليا كريسبي گاوديو أرملة الأستاذ أتيليو گاوديو، المقيمة بميلانو بإيطاليا، التي وافقت - وهي مالكة حقوق النشر- على ترجمة هذا المقال ونشره باللغة العربية، وقد عبرت - عند اتصالي بها - عن سرورها بذلك، وعدته اهتماما بأعمال زوجها الباحث الإيطالي المرموق، الذي قضى طرفا من حياته بالمغرب صحفيا وباحثا منقبا، وكان يكن لبلدنا كل مشاعر المحبة والتقدير.

1. التعريف بالكاتب أتيليو كاوديو.(1)

ولد أتيليو گاوديو في 28 يونيو 1930 في فيرونا شمال إيطاليا، وهناك نشأ ودرس، ثم شارك بنشاط وهو شاب يافع في المقاومة أثناء الحرب العالمية الثانية في إيطاليا وفي إسبانيا، وبعد الحرب انتقل إلى باريز، حيث تابع دراسته في جامعة باريز، حتى حصل على شهادة دكتوراه السلك الثالث في العلوم الأنثروبولوجية، بجامعة باريز الخامسة، ثم شهادة دكتوراه الدولة في الأدب والعلوم الإنسانية، بجامعة السوربون بباريز، ودبلوم مدرسة الأنثروبولوجيا، من المدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية بباريز كذلك، في تخصص إفريقيا الاستوائية.

عمل گاوديو بالصحافة منذ عام 1954، واهتم بالمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية للعالم الثالث، وبالضبط قارتي إفريقيا وآسيا، واهتم كثيرا بالمغرب، خاصة نضاله من أجل الاستقلال، وكان من الصحفيين المرافقين للملك محمد الخامس عند عودته إلى المغرب من النفي.

عمل كذلك مراسلا متجولا لوكالة الصحافة الإيطالية ووكالة أ.د.ن كرونوس، ووكالة الأنباء الإيطالية ANSA في باريز، وفي عواصم مختلفة في إفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، ثم صار منذ عام 1970، مراسلا رئيسيا لهذه الوكالة في إفريقيا. وكان متعاونا مع عشرات قنوات الإذاعات والتلفزة والصحف والدوريات والمجلات العلمية في فرنسا

(1) توجد سيرة موجزة للكاتب ولائحة أعماله الكاملة على موقع الجمعية التي تحمل اسمه:
https://associazioneargogaudio.org/attilio-gaudio/47-biografia

وإيطاليا وســـويسرا وبلجيـــكا وإســـبانيا ومصر ولبنــــان وإريتريا والمغرب وســـاحل العاج والولايـــات المتحدة الأمريكية، وإضافة إلى نشـــاطه الصحفي، قام بمهـــام علمية في المجالات الإثنولوجيـــة والأنثروبولوجيـــة الثقافيـــة، وعرض نتائـــج أبحاثه في عدة مؤتمـــرات جامعية بأوروبا وأفريقيا وآســـيا وأمريكا. كما كان من أبرز المتخصصين في الدراســـات الأنثروبولوجيا الصحراوية بغرب إفريقيا ومنطقة الساحل.

27 bis

Manuscrits du fond Kati de Tombouctou (XVe siècle) photographiés pour la première fois en 2001 par M. Attilio Gaudio. Le fond se trouve dans la maison de l'historien tombouctien Diadié Haidara.

تـــرك أتيليـــو گاوديو مؤلفات عديدة منشـــورة في فرنسا وبلجيكا والمغرب وإيطاليـــا في مجـــالات الإثنولوجيا والأنثروبولوجيا والتاريخ والمجتمع المتعلقة بأفريقيا وآسيا، وحصل على عدة جوائـــز أدبية وعلمية وشهادات تكريمية أكاديمية، من بينها الوســـام العلـــوي من درجـــة ضابط كبير.

إلى ذلـــك اختير منذ عام 1980 من قبـــل المعهد الدولي للأنثروبولوجيا في باريز لتســـيير المركـــز الـــدولي لبحوث الصحـــراء والســـاحل (CIRSS)؛ ونظم لذلك عددا مـــن المؤتمرات الأوروبية الأفريقية. كما عمل أســـتاذا للتاريخ والحضارة الإفريقية في مدرســـة الأنثروبولوجيا بباريز. وعضوا مؤسســـا لمركز دراســـة الآثـــار الأفريقية بميلانو وعضوا منذ ســـنة 1993، في أكاديميـــة العلوم لما وراء البحار، ومراســـلا دائما للمعهد الجغرافي العســـكري في فلورنســـا. وعضـــوا في جمعية المتخصصـــين في الثقافات الإفريقيـــة، في باريز منذ عـــام 1958، وعضو في جمعية الدراســـات الأثيوبيـــة، وفي جمعية رجـــال الآداب، ونادي المستكشـــفين بباريز، كما كان الرئيس الفخري لمؤسســـة حمايـــة تينبكتو.

ألـــف أزيد مـــن 44 كتابا، منها مؤلفـــات عن المغـــرب باللغتين الفرنســـية والإيطالية، ومنها :

- A travers l'Afrique Blanche ; Ed. Julliard, Paris, 1955
- Le Sahara des Africains ; Ed. Julliard, Paris, 1960
- Rif, terre marocaine d'épopée et de légende ; Ed. Julliard, Paris, 1961
- Les Civilisations du Sahara ; Ed. Gérard, Bruxelles, 1967
- Allal El Fassi ou l'Histoire de l'Istiqlal ; Ed. Alain Moreau, Paris, 1971
- I Berberi; I.G.M., Firenze 1971

- Sahara Espagnol, fin d'un mythe colonial ; Ed. Arrissala, Rabat, 1975
- Le Dossier du Sahara Occidental
- Ed. N.E.L., Paris, 1978 (Prix Louis Marin de l'Académie des Sciences d'Outremer)
- Maroc du Nord : cités andalouses et montagnes berbères
- Ed. N.E.L., Paris, 1981
- Fès, joyau de la civilisation islamique
- Ed. UNESCO-N.E.L., Paris, 1982
- Maroc Saharien : du Tafilalet au Rio de Oro
- Ed. Dessain et Tolra, Paris, 1985
- Sahara, 6000 anni; Ed. Moizzi, Milano, 1988; Guida al Marocco
- Guerre et Paix au Maroc : reportages 1940-1990 ; Ed. Karthala, Paris, 1991
- Sahara, città storiche da salvare; Ed. I.G.M., Firenze, 1992
- Les populations du Sahara Occidental ; Ed. Karthala, Paris, 1993
- Sud Marocco, Sahara Occidentale, Nord Mauritania : oasi e casbe da scoprire; Ed. Polaris, Firenze, 1997

تـوفي أتيليو گاوديو 12 يوليوز سـنة 2002 إثر حادثة سـير قريبا مـن فيرونا، وتواصل أرملته إيميليا كريسـبي گاوديو، نشر أعمالـه، والتعريف بتراثه التاريخـي والأنثروبولوجي والفكـري عموما، خاصة في جمعية أسسـتها لهذا الغرض تحمل اسـم زوجهـا، ولها موقع شـبكي باللغة الإيطالية، عـلى العنوان التالي:

/https://associazioneargogaudio.org

2. اهتمامه بالتراث المخطوط في الصحراء والسـاحل.

اهتـم الباحث الإيطـالي كثيرا بالمخطوط العربي الإسـلامي خاصـة في منطقة الصحراء والسـاحل، وذلك في إطـار اهتمامـه بتاريخ وثقافـة ومجتمع هذه المناطـق، وقد لفت انتباهـه، منذ رحلاتـه الأولى خلال المنطقة، وفـرة المخطوطات العربيـة، ووجود عشرات بل مئـات الخزائن، وقد سـاعدته جولاتـه الميدانية لزيـارات كثير منهـا، والاطلاع على مـا بها مـن مخطوطات كثـيرة، ومعرفة الموضوعات والمجـالات التي تناولتهـا، من علوم الديـن والفكر والثقافـة والتاريخ والتراث المحلي، وقام في سـياق اهتمامه هـذا، بتنظيم

سلسلة ندوات في المؤسسة التي كان يترأسها، وهي المركز الدولي لدراسات الصحراء والساحل(CIRSS) ما بين سنتي 1995 2000- بباريز، وهي:[1]

- الندوة الأوروبية الأفريقية بشنقيط موريطانيا في أكتوبر 1995.
- والندوة الأوربية الأفريقية بميلانو في ماي 1998.
- والندوة الدولية بنواكشوط سنة 1999.
- والندوة الأوربية الأفريقية بتينبكتو سنة 2000.

وقد جمعت البحوث التي ألقيت فيها وهي نحو 40 بحثا، ونشرت في سجل جامع بعنوان: «خزائن الصحراء، أبحاث ودراسات حول ألف سنة من الكتابات.»

Institut International d'Anthropologie

LES BIBLIOTHÈQUES DU DÉSERT
Recherches et études sur un millénaire d'écrits

Contributions réunies et présentées par
Attilio Gaudio

L'Harmattan

Les bibliothèques du Désert recherches et études sur un millénaire d'écrits

وصدر ضمن منشورات المركز سنة 2002 بدار النشر الأرماتان بباريز، وقد تناولت تلك الأبحاث التعريف بالمخطوطات، وأماكن حفظها، ومشاكل صيانتها، والسياق الثقافي الذي وجدت بها، وتقديم مقترحات وحلول للمشاكل التي تعاني منها تلك المخطوطات.[2]

وقد أفضت هذه الندوات، والبحوث التي نتجت عنها، إلى ضرورة صيانة المخطوطات في منطقة صحراء غرب إفريقيا والساحل، والعناية بها، ومحاولة إنقاذها من الضياع، وقد ذكر الأستاذ أتيليو گاوديو كما نرى في المقال الذي نحن بصدد ترجمته، جملة مقترحات لتحقيق ذلك، منها على وجه الخصوص إنشاء منظمة دولية متخصصة تسعى إلى العناية بالتراث المخطوط في تلك المنطقة، والعمل على صيانته وترميمه من جهة، وإتاحته للباحثين لدراسته واستغلاله في الأبحاث العلمية، والمؤلفات الأكاديمية، وركز على وجه الخصوص على استقلال المؤسسة المزمع إنشاؤها عن الهيئات الثقافية الدولية التي تغلب عليها التعقيدات الإدارية، مما يمنع أو على الأقل يبطئ تحقيق الأهداف الفكرية والثقافية المطلوبة.

---

(1) - مقدمة سجل الندوات، ص: 7.

(2) Jean Poirier, « GAUDIO, Attilio, 2002, Les bibliothèques du Désert. Recherches et études sur un millénaire d'écrits », Journal des africanistes, 75-2 | 2005, mis en ligne le 27 mars 2007, consulté le 10 février 2023. URL:

;http://journals.openedition.org/africanistes/151

DOI: https://doi.org/10.4000/africanistes.151

3. نص المقالة مترجمة.

سأقتصر هنا على عرض نماذج مواقع لازالت بها حتى الآن مخطوطات قديمة لم يسبق تصنيفها ولا معالجتها، وهي مهددة بالضياع، وقد مكنني ملاك هذه المخطوطات من معاينتها خلال جولاتي الصحراوية الأخيرة.

في بوجبيا (تبعد 185 كلم إلى الشمال الشرقي من تينبكتو، عبر طريق غير معبد صعب السلوك، يقطع على الأقل في يوم كامل) تحتفظ أسرة من كل السوق بحوالي 600 مخطوط عربي، وهي محفوظة في قبو مسجد مغطى بالرمال، وحسب المعلومات التي استقيتها من عين المكان، فإن ثلثيها تتعلق بالفقه والتاريخ الإسلامي، بينما تهتم بقيتها – وهي أكثر أهمية – بالصيدلة التقليدية الصحراوية، غير أن إمام المسجد رفض رفضا باتًا اطلاعي عليها. وبالرغم من أن لا شيء ينبت في هذه المنطقة، فإن أكثر من 2000 جمل ترعى بها باستمرار، ويملك سكان بوجبيا بعضها، بينما تعود ملكية بقيتها إلى مربي الماشية في أروان، التي تعد أهم مرحلة في طريق قوافل الملح (المعروفة بأزالاي) لم يتجاوز عدد المنازل التي أحصيتها في بوجبيا 10 منازل طينية، وحوالي عشرين خيمة، وأظن أنه ينبغي تكثيف البحث والتعرف على التراث المخطوط عند المرابطين والفقهاء (أساتذة المدارس القرآنية) بقبائل كل السوق، وهم ملاك المعرفة والتقاليد الثقافية والدينية في كل الشمال الشرقي المالي، وقد أخبرتني صديقتي تيتا التي جمعت مكتبة صغيرة، بوجود مخطوطات عند أعضاء أسر الطوارق في أدرار وإيفوغاس، ويتعلق الأمر – بصفة أدق –بكتب تملكها عائلات من منطقة تاماراضنات (تقع على بعد 80 كلم من كيدال) وكذلك حارس مسجد تين إيساكو[1] (على بعد 40 كلم) أما موريطانيا التي يتجاوز بها عدد المخطوطات من حيث الأهمية والكثرة، كل مناطق الصحراء المدارية والساحل، فأشغال الاستكشاف والمحافظة التي بذلها الباحثون والمتخصصون بدأب ونجاح سواء كانوا موريطانيين أو أجانب – ستبرز الندوة جهودهم – تركزت على ما يظهر، حتى الآن على الوثائق المتأتية من المدن القديمة التي أعلنتها اليونسكو تراثا إنسانيا جديرا بالصيانة، وهي: شنقيط وودان وولاتة، بينما تظل المدينة الرابعة مهمشة، وهي تيشيت، المعروفة بالمدينة الميتة، وينبغي أن نشير إلى أن الوصول إليها غير ميسر، وأن اجتياز الهكار، غير مشجع للذين هم مثلي، ممن يفضلون الطرق البرية على رحلات الطائرة النادرة وغير المضمونة المنطلقة من نواكشوط، غير أن الوصول إلى هذا السراب من الحجارة الصحراوية، حيث يتشبث ألف من السكان بالحياة، وبذكريات ماض ثقافي مجيد، إضافة إلى ما يتسمون به من كرم الضيافة، كل ذلك يؤجج العواطف، لقد كانت تيشيت خلال عدة قرون

(1) تصحفت عند المؤلف إلى: تيم إساكو.

مدينة مشـهورة في العصور الوسـطى في كل صحـراء الغرب بالإسـلامي بعلمائها وتجارها ، وكان في كل منـزل منها مكتبـة، وكانت كل أسرة منها مسـتنبتا فكريا.

لقـد جلب غناهـا وازدهـار قوافلها التجاريـة، العلـماء والطلبة مـن كل جوانب الصحـراء الموريـة، وأخرجت أجيـال منهم عـددا من النسـاخين، فيما كانـت القوافل التجاريـة تحمـل إلى هذه المـدارس التي أضحـت مشـهورة، كتبا بكميـات وافرة، كان مصدرهـا كبريات المدن الأندلسـية، وشـمال إفريقيا والشرق الأوسـط، ومع أن تيشـيت اليـوم مدينة نائمة اقتصاديـا واجتماعيا، فإن منازلها الآيلة للسـقوط، التـي زحفت عليها الرمـال، مازالـت تحتضن 7000 مخطـوط من كل العصـور، وفي شـتى التخصصات، أما أحـوال حفظهـا فهي مختلفـة، وتتوقف عـلى الاهتمام والعناية التي يسـتطيع شـيوخ العلـم في المدينـة تخصيصها لها، وفي نواكشـوط أخبرت أخيرا بأن محمد ولـد [الندى]،[1] وهـو باحث في معهـد البحث العلمـي بموريطانيا سـيعمل في مـشروع تصنيف وتصوير أهم خزائن تيشـيت إن شـاء اللـه ! وعندما نتجه شـمالا على متن الحصـان إلى منطقة تيرس زمور، بين موريطانيا والصحراء المسـتعمرة الإسـبانية السـابقة الموجودة الآن تحت الإدارة المغربيـة، فإننا نجد بعض مخيـمات الرّحل الباقية مازالت تملـك مخطوطات، لمن كانـوا يدعون «علـماء تيرس في القـرون الثلاثة الأخـيرة»، وفي كل الأحوال فـإن أهم ما في هـذا الكنـز الثقافي للصحـراء الغربية[2] فيما قبل الاسـتعمار، يوجـد متفرقا بين بعض الأسر والمسـاجد الموريـة في الداخلـة والعيـون والحكونية وأكلميم، وقـد تكون عشرات منهـا في القرويين بفـاس، فمن هم المؤلفـون المجهولون لهـذه المؤلفات؟

لقـد ظهر مفكـرون ذوو ثقافة كبيرة بـين القبائـل المرابطية (رجـال الكتب) خلال عصرهـم الذهبـي بين القرنـين 18 وبداية 19، كالشـيخ محمـد ولد محمد سـالم، الذي كان مؤلـف كتاب عظيـم في القوانـين العرفية (العـادات) والفقه المالـكي والمكون من 10 آلاف صفحـة؛ وامحمد ولـد الطلبة، الذي كان شـاعرا كبـيرا ونحويـا، ولَمْجَيْدري[3] بن حبيـب الله الذي كان شـيخ عميد جامعـة القرويين بفاس، وفي أخريـات حياته كان يـدرس بالجامع الأزهر بالقاهـرة، وقد حصّـل كل معارفه بتيرس؛ والشـيخ محمد المامي الـذي كان جغرافيا كبـيرا، وجمع كثـيرا من نصوص الإنشـاد الصحـراوي في عهده، غير أن أهـم مؤلفاتـه هو كتـاب البادية، وهو موسـوعة حقيقيـة واصفة لمناظـر الطبيعة وعـادات وتقاليد كل القبائـل الصحراوية.[4]

---

(1) سـقطت بقية اللقب مـن الأصل، وقد سـألت أرملة المؤلف السـيدة إميليا كريسـبي گاوديو فأفادتني باسـم البحـث الكامل، الذي سـبق له المشـاركة في ندوة مخطوطات شـنگيط بموريطانيا سـنة 1996، ونشرت بالمجلة الجديـدة للأنثروبولوجيا، وأفادتني بذلك مشـكورة في رسالة بريدية شـبكية يوم 2023/02/11.

(2) يسـتعمل المؤلـف هنا مصطلـح الصحراء الغربيـة بمعناه الجغرافي حيـث يقصد بها الصحـراء المغربية الممتدة مـن أكلميم حتى الكويـرة، ثم موريطانيـا، بينما يقصد بالصحراء الوسـطى التي سـيورد الحديـث عنها فيما بعد، مـالي والنيجر.

(3) تصحف عند المؤلف إلى سيميدري.

(4) كتـاب البادية، هـو كتاب يعالج مشـكلات الحيـاة البدوية مـن الناحيـة الفقهية، فيحـاول تقديـم أجوبة للنـوازل المرتبطة

لقـد دوّن كل الأدب الصحراوي في هذه المرحلـة بالحسـانية، وكان محفوظا بالرواية الشـفوية، في المنظومـة الطويلة المسـماة الجنة، وأفضل الشـعراء المعاصريـن ينتمي إلى أولاد تيدراريـن، وهو الرويجل ولـد محمد مبيريك المقيـم ببوجدور.

ويزودنـا أحمد بابا مسـكه المنتمي إلى القبيلـة المثقفة لأهل باريـك الله، بمعطيات مفيـدة حول أرسـتقراطية الفكر لـدى صحراويي تـيرس، ويخبرنا من بين مـا يقدمه من معلومـات عـن « إيكِيوْ مـن تاكانت المقيم بأدرار، وسـادّوم أكبر الشـعراء الحسـانيين في كل العصـور، وهو سـليل أسرة مجيـدة من إيـكاوْنْ... وخلال جولة له في السـاحل، اسـتُقبل سـادوم ولد أبّـا اسـتقبالا حافلا من قبـل الرقيبـات، الذين غمـروه بالهدايا، فتغنـى بكرمهـم في قصائد كثـيرة، يواصل ابنه وأبنـاء أخيه نشرها، خاصـة المغني الكبير سـيداتي ولد أبّا.

ويعـد أهل باريـك الله نموذجـا مركبـا، إذ يتعلق الأمـر بقبيلة كبيرة مـن القبائل المرابطيـة، غـير أن تأثيرها تجاوز كثيرا الحدود المرسـومة عـادة لقبائـل المتعلمين، إنهم لا يحـوزون جماعة مـن الحراطـين (المحرريـن) والعبيد مثـل الزوايا الكبـيرة الأخرى وحسـب، ولكن قلة من المحاربـين لديهم قدر مماثـل من الخدم (الأتباع) عبر السـاحل كلـه والإمـارات المجاورة حتـى الحوض، إن هذا التأثير ذو أسـاس روحي فكـري، ولكنه كذلك اقتصادي وسـياسي. فهـذه القبيلة مثلا هـي التي حفرت غالب الآبار في السـاحل، خاصـة في تيرس، دون أن تحمل السـلاح، معتمـدة على عدة قبائل محاربـة، تربطها معها علاقـات متينـة، وبعضها مـن قرابتها، مثـل: أولاد اللـب[1] (كانوا لمدة طويلـة الجناح الحـربي للقبيلـة، أو ذراعها الدنيويـة) وأولاد دليم، والگـرع،[2] أما علاقتهـم بأولاد أبي السـباع فكانت متسـمة بالصراع بالرغـم من كونها متينـة، كما عقـدت مواثيق تحالف مع قبائل السـاحل البعيـدة (كالركيبـات، والزرگيين) ومع الإمـارات المجاورة.

وما يزال الشـعر أفضل شـاهد على هـذه الأوضـاع الاجتماعية، لذلك فـإن محمد عبـد اللـه ولد البخاري ولـد الفيلالي أفضـل من بيّن الوضـع الاجتماعـي لقبيلته، ويعد مع الشـيخ محمد المامـي وامحمد ولد الطلبـة، من كبار زعماء تـيرس، إذ كان في الوقت ذاتـه عالما شـاعرا وصوفيـا سياسـيا، إلى ذلك فإن بعض فـرق تندغة، مثـل أهل محمد سـالم (وهم قبيلـة عالمة) وكذلك إيـد أيوب من بنـي عمومة أهل باريـك الله، صنعوا لتـيرس مجدهـا العظيم، ومنهم محمـد ولد الطلبة وشـعراء وعلماء آخـرون، غير أننا لا نفصـح عـن كل شيء إذا صنفنـا أي قبيلة بكونها محاربـة أو متعلمـة أو خاضعة ذليلة،

بالحيـاة الصحراويـة، وعاداتهـا وتقاليدهـا وأحـوال الحياة الصعبـة بها، وخلال ذلـك يقـدم معلومات غايـة في الأهمية عن المجتمـع والمجال والثقافة...الخ، «الشـيخ المامـي وكتابه البادية»، لرشـيدة برباط، على الرابط التـالي: https://cutt.us/qorZN (نظر 2023/02/11)

(1) تصحفت عند المؤلف إلى أولاد اللح.

(2) في الأصل Gueras، وأشكر الأخ الفاضل الأسـتاذ محمد علي أمسكين على مساعدته في تصحيح التصحيف.

أو أنهـا في الآن نفســه قبيلــة مرابطيــة محاربة، أو خاضعــة مقاتلة، أو أحيانــا مدجنة، فهــذه الأوصاف ليسـت دقيقة، إذ تنقســم كل قبيلة إلى أقســام عديدة.

فالطبقــة المرتبطــة تلقائيا باســم القبيلة هي التي تكـوّن نواتها الأساسـية، وتمنحها ســمتها الغالبــة، وحول تلـك النواة تلتئــم فئات أخـرى، خاضعة وغير بــارزة، (في حال كونهــا قليلــة العدد، بحيــث لا تســتطيع الانضمام في كيان مســتقل، متمتــع بأدنى قدر مــن الاســتقلال) مكونة مــن حرفيين وحراطــين وعبيد، وليــس من الــضروري أن تتوفر كل قبيلــة عــلى أتباع خاضعــين وحرفيين، ولكنهــا تمتلك دائمــا عبيدا وحراطــين بأعداد متفاوتــة، أما معرفة الأنســاب، والعادات والســلوك الاجتماعي، فعميقــة ودقيقة، بحيث يكفــي أن يذكــر المســافر القادم مــن الطرف الآخــر من الســاحل، بل حتــى من بلاد أخـرى مجاورة، اســم قبيلته حتــى تُستَشَــف باقي المعلومــات، فيعرف أصلــه وتحدد العائلــة التي ينتمــي إليها.

وقد تشرفت ســنة 1978 باســتقبال جماعة أولاد تيدرارين لي ببوجــدور في جمع غفير مــن الناس، وتمكنــت خلال ذلك مــن الاطلاع عــلى وثائــق تاريخية مصونــة جيدا من بينهــا أصول ظهائر (مراســيم ملكية مغربيــة) مؤرخة في القرن 19 ســفرت بجلد الجمل.

كــما أني انتقلــت إلى الحگونية (على بعد 95 كلم شــمال شرق العيــون) حيث مكثت في هــذه الزاوية العلمية التــي كانت بها قبل الاســتعمار إحدى أغنى الخزائن الإسلامية في الغــرب المغربي، ويعد الشــيخ أحمد بن ســيدي محمد بن ســيدي بوبكــر (الفقيه)، رئيــس زاويــة الحگونية، ورئيــس الجماعة القروية، ســليل مولاي عــلي الشريف الفيلالي و«الفيلاليــون» -كما اشــتهر- قدموا من الصحراء قبــل 3 قرون، واســتقبلتهم كل القبائل العربيــة بحفاوة، خاصــة بني منصور الذيــن انقرضوا تمامــا اليوم بســبب الهزائم التي ألحقهــا بهم «أمعرف»[1] وهم قســم مــن أولاد الدليم.

بقــي الفيلاليون قرنــا كاملا ببوكراع ثــم صعــدوا إلى الحگونية، وتبعهــم الزرگيون، وكان ســيدي أبوبكر مؤســس زاوية الحگونية، ومدّ الفقهاء الفيلاليــون بعد ذلك تأثيرهم وإشــعاعهم الثقــافي والفقهي إلى كل الصحــراء، من وادي درعة حتى تــيرس، كما احتجنوا وظائــف القضاء والتعليــم، وقام المرابطــون الفيلاليون بتقييد مختلــف المعارف الشرعية، والعلــوم التــي كانوا يدرســونها في مخيماتهــم المتنقلة، أمــا حاليا فإن غالــب المؤلفات المطبوعــة والمخطوطة توجد بأگلميــم بخزانــة الحگونية، التي تعرضــت لقصف وتدمير المدفعيــة الإســبانية إبان حــرب التحرير ســنة 1957، ولغايــة الآن فإن غالــب معلمي القرآن في الصحــراء الغربية مازالوا مــن الفيلاليين.

ولننتقــل الآن إلى المغرب شــبه الصحراوي وبالضبط إلى الحوض الســفلي لوادي درعة

(1) انظر حولهم معلمة المغرب22/7615.

الـذي شـهدت ضفتـاه منذ مرحلة مـا قبـل التاريخ على طـول 750 كلم تـوالي مراكز ثقافـات وحضـارات متعددة، خلفـت لنا متحفـا حقيقيـا مفتوحا، للنقـوش الصخرية، والمقابـر المنتمية لما قبل الإسـلام، وفي الوقت نفسـه يحتفظ السـكان والزوايـا الحالية بعدد غير محـدد من المخطوطـات العتيقة والكتـب الحديثة، مازال قسـم منها مجهولا لـدى الباحثين المختصـين، وبعيدا عن فهـارس المكتبـات المغربية، ، وقـد كنت بصراحة مندهشـا من وجود مئـات المخطوطات عنـد الأسر بطاطـا، وقصور واحاتها الفسـيحة، وكانـت تنتقل بحرص شـديد من جيـل لآخـر، باعتبارها تراثـا عائليا خاصـا، وهي في غالبهـا مؤلفات ونصـوص تاريخية أو دينية: من مصاحف وكتب حديث وسـيرة الرسـول محمـد [صلى الله عليه وسـلم] وقواعد اللغـة العربية، ومن بين المؤلفات الأكثر نفاسـة يمكن أن نشـير إلى تاريخ سـوس للحضيگي من القرن 12 للهجرة، المحتوي في فهرسـه على أسـماء جميـع علماء المنطقة، كـما نجد مجموعة ضخمـة من ظهائر السـلاطين العلويين (خاصـة مولاي إسـماعيل) موجهة للرؤسـاء السياسـيين والإدرايين (القـواد) بواحات أقا وتيسـينت وفم زگيـض، وللخلفاء (ممثلي السـلطان) والرؤسـاء الدينيين لكـبرى الزوايا، وضمنهـا زاوية مغيميمة، غـير أن المخطوط الذي يعـده أهل طاطا كنـزا لا يقدر بثمن، هـو تقييـد تاريخي يعود لسـنة 563 للهجـرة، (القرن 11 مـن التقويم الميلادي) نسـخ عـلى رق الغـزال، ويحكي وقائـع وصول المرابط سـيدي أحمـد بن محمـد النّخيلي إلى مكنـاس، ثـم توقفه بفم زگيض قبل أن يسـتأنف سـفره نحو الصحراء الغربية وشـنقيط بموريطانيـا، وذكـر الإخبـاري المجهول محـرر النص قبـل ألف عام، أن سـكان واحات درعـة أهدوه أراضي مسـقية، ومنحوه عبيدا، حتى يشـجعوه على الاسـتقرار الدائم بفم زگيـض، وهذا ما حـدث فعلا.

وعلى بعـد 10 كلم جنوب غـرب طاطا على الطريـق المؤدية إلى أقـا، توجد طريق فرعيـة غـير معبدة، ولا ظاهـرة، يصل طـرف منها عبر الـرگ (الصحـراء الصخرية) إلى قـصر تازاين والطرف الآخـر إلى قرية جباير، [1] أمـا القرية الأولى فهـي مكونة في غالبها مـن قصبة مطلة على بسـاتين نخيل، وقد سـكنتها منـذ القدم جماعة يهودية نشـيطة، وهنـاك نـزل المستشـكف الفرنسي - الـذي ترهبن بعد ذلك – شـارل دوفوكولد سـنة 1909 متخفيـا في صفـة تاجر يهودي، أمـا القريـة الثانية فهي مدشر جاثـم على جرف صخـري بازلتي، وهـو الآن مهجور، وكان منطلـق عدد كبير من القوافـل العابرة للصحراء حتـى بدايات القـرن 20، وقد تمكنت مـن زيارة فُنْـدُق القوافل وهو سـليم تقريبا من الخراب، ويتميز بهندسـته المغربيـة الجميلة، وتفاجأت عندما عُـرض عليّ مخطوط عربي، في ملكيـة أسرة قدماء التجـار، قيدت به تفاصيل تجـارة القوافل مع إفريقيا السـودانية، ومـع التجار الكبار من الشـمال مثل تارودانت ومراكش وتافيلالت وتلمسـان، وحسـب

(1) تصحفت عند المؤلف إلى تباير Tbair.

الترجمة الكاملة التي قدمها لي بكل ود مندوب وزارة السياحة بإقليم طاطا، فإن هذه الوثيقة تذكر كل المواد المنقولة من الشمال نحو الجنوب، إضافة إلى المنقولة من إفريقيا السوداء بواسطة القوافل نفسها، مع بيان أسعار شراء وبيع كل سلعة على حدة، وقيمة حمولة كل جمل.

كما أن الوثيقة تذكر من بين ما تذكره الكتب المطبوعة بفاس أو المستوردة من الشرق الأوسط، وكانت أثمانها تؤدى ذهبا من طرف جامعة سانكوري، والأسر العالمة بتينبكتو، وكذلك بشنقيط بموريطانيا.

وإذا انتقلنا 60 كلم إلى الشمال الغربي من طاطا، سنكتشف واحة أقا الرائعة، مهد الدولة السعدية، والوريث الثقافي لمدينة تامدولت المجاورة، التي اختفت نهاية القرن 8 للهجرة/15 للميلاد، وكانت أقا كذلك على طريق القوافل الرابطة بين مراكش وتينبكتو، وقد أكد لي قائد الملحقة في يناير الماضي أن كثيرا من الأسر المستقرة بالقرى العتيقة للواحة لازالت تحتفظ بمؤلفات مخطوطة ومطبوعة، لم يقع أبدا جردها.

كما أن هناك مئات من المخطوطات تنتظر التعريف بها بقرى واحة تيمالت بحوض تمنارت بين فم الحصن وبويزكارن، جزء منها محفوظ بالزاوية التي أسسها العالم والولي الصالح امحمد [بن] إبراهيم الشيخ الذي كان يحرر لطلبته ملخصات في النحو والادب العربيين كما ترك أيضا مؤلفات في العقيدة والتصوف والتشريع، أما ولده ومريده ابن[1] إبراهيم الشيخ التمنارتي (توفي سنة 971هـ /1564م) فقد حرر أيضا مؤلفات في النحو العربي والفقه الإسلامي والتاريخ الديني،[2] ولحسن الحظ فإننا نجد قائمة أساسية لمؤلفات تمنارت في المعسول وسوس،[3] للمؤرخ المختار السوسي.

وفي الرباط أراني مدير المكتبة العامة السيد التوفيق بقسم المخطوطات جذاذات 7 مؤلفات لأحمد بابا محفوظة بحالة جيدة، ومقيدة بالفهارس ومتاحة للباحثين، ولن أتحدث هنا عن المخطوطات الواردة أو المتعلقة بالصحراء، المذكورة في فهارس المكتبات المغربية الأخرى، ومن بينها المكتبة المشهورة لزاوية تامگروت بالحوض الأعلى لدرعة، المدرجة والموصوفة بدقة منهجية في المؤلف القيم للسيدة لطيفة بنجلون العروي، «مكتبات المغرب» المنشور بباريز سنة 1990 بعناية دار نشر ميزونوف ولاغوز.

وقد أخبرتنا السيدة لطيفة بنجلون أن نص عرضها سيرسل إلى باريز ليكون ضمن أعمال الندوة، وكذلك السيد إسحاقا ماغا، المسؤول عن قسم المخطوطات بمعهد

(1) وهم المؤلف في اسم الشيخ التمنارتي وولده، فالشيخ هو امحمد بن إبراهيم الشيخ التمنارتي المتوفى عام 971هـ أما ابنه فهو إبراهيم بن امحمد بن إبراهيم، وقد توفي قبل والده ببضعة أشهر، انظر المعسول 46/7.

(2) يقصد غالبا السيرة النبوية.

(3) يقصد كتاب «سوس العالمة» لمحمد المختار السوسي.

العلوم الإنسانية بجامعة نيامي، الذي اعتذر عن السفر إلى ميلانو، وأخبرنا بإرسال مشاركته لنشرها ضمن أعمال الندوة.

وقد ورث معهد العلوم الإنسانية المذكور (IRSH) مجموعة مكونة من حوالي 3500 مخطوط وكتاب عتيق بالنيجر، جمعها المأسوف عليه بوبو هاما الذي كان رئيس الجمعية الوطنية، وكان باشر قيد حياته عملا دائبا للبحث عن التراث المكتوب وتصنيفه، بعد أن كان منسيا بقرى ومخيمات مختلف المجموعات العرقية في وطنه.

إننا ونحن نتتبع هذا المسار للمواقع المحتفظة بمخطوطات الصحراء والساحل غير المعروفة بما فيه الكفاية، نشير إلى مجموعة بن حمود للمخطوطات بتينبكتو، المحفوظة بالمكتبة الوطنية بالجزائر العاصمة، ومجموعة أرشينارد بالمكتبة الوطنية الفرنسية، حيث جُرِدت بعض مخطوطات مالي، ومجموعة جيرانكور ذات المخطوطات العربية من منطقة الساحل، التي يمكن الاطلاع عليها بمكتبة معهد فرنسا.

وأود أن أشير إلى المخطوط الذي عُثر عليه بقسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية الفرنسية سنة 1982، بعد أن ظل منسيا مدة قرنين، ويكشف عن الرحلة التعيسة لضابط فرنسي من الإدارة العسكرية الملكية للمستعمرات وهو السيد بريصون الذي تحطمت السفينة التي كانت تقله، على الشواطئ الموريطانية، خلال سفره سنة 1875 في مهمة إلى السنغال، فوقع أسيرا لدى القبائل المورية، إنها 175 صفحة مدهشة بوصفها للأماكن والسكان الرحل للصحراء الغربية من موريطانيا حتى المغرب، وأنا مدين بالجميل للمنشورات اللاتينية الحديثة لنشرها النص الكامل للرحلة مع تعليقات توضيحية سنة 1984، وسأقدم تفاصيلها خلال أعمال الندوة.

إضافة إلى ذلك فبالمكتبة الوطنية الفرنسية النص الكامل باللغة اللاتينية لحكاية « رحلة إلى توات» للتاجر الجنوي أنطونيو مالفانت المؤرخة سنة 1447، وقد ترجمت إلى اللغة الفرنسية بعناية شارل دو لا رونسيير وإلى الإيطالية بفضل الأستاذ رومان رايبيرو من جامعة ميلان، وأشير إلى المعلومات التي قدمها أنطونيو مالفانت حول هذه المنطقة من الصحراء الوسطى، التي كانت كذلك خلال العصور الوسطى مركز مملكة يهودية، وقد سمحوا للجنوي أكوستينو دا نولي سنة 1457 بوضع خريطة لمراحل التغلغل التجاري الإيطالي في الصحراء وإفريقيا الغربية، وهي محفوظة بقسم الخرائط البرية والخرائط الملاحية، بالمكتبة الوطنية لفلورنسا، غير أننا نعرف أيضا بفضل خريطة جيوفاني ماورودا كارينيانو (ق10) المحفوظة بوثائق الدولة بفلورنسا (بقصر أوفليزي) بأن جماعة كبيرة من التجار الجنويين كانوا مستقرين بسجلماسة، وكانوا يتحكمون في جزء من التجارة العابرة للصحراء مع إمبراطورية غانة من جهة،

والمراسي البحرية المتوسطية وبلاد الفلاندرز من جهة أخرى، وسنعرض وثائق حول خرائط وعلاقة هؤلاء الجنويين بسجلماسة خلال أعمال الندوة.

وقبل الختم أود أن أخبركم بإعادة اكتشاف نص بفلورنسا، ضمن مجموعة مخطوطات مكتبة ميديسيو لورينزيانا، التي أسسها آل مديتشي بدير سان لورينزو، وفي المجموعة الخاصة للورد آشرنهان، التي اقتنتها الحكومة الإيطالية سنة 1884 وبها «مذكرات تاريخية» ورسائل التاجر والرحالة فلورينتان بينيدتوديي، أول أوربي وصل تينبكتو حوالي سنة 1469م.

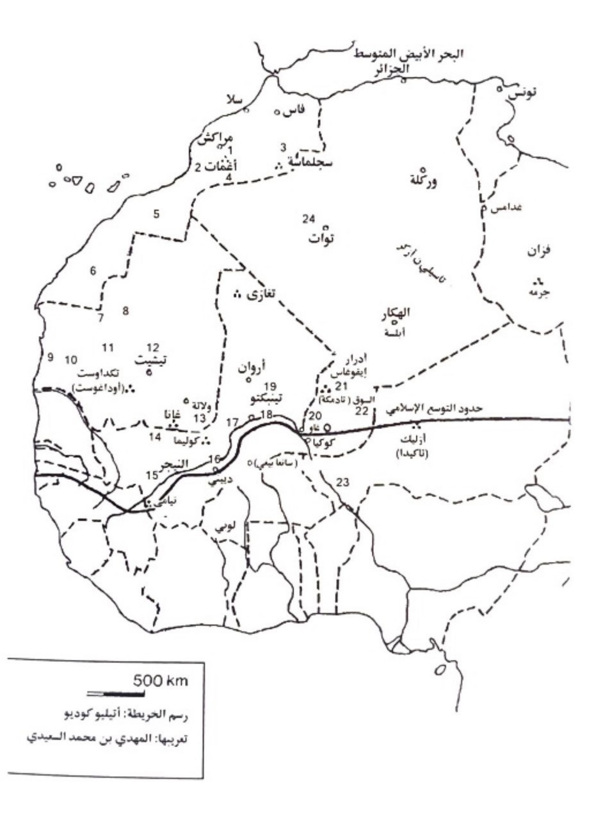
أرجو أن تعذروني لأني أطلت كثيرا، وكنت في الحقيقة مضجرا، ولكن اسمحوا لي بإشارة مهمة أخيرة، وهي أنه لا ينبغي الاكتفاء بالحديث الأكاديمي عن المخطوطات القديمة التي يجب إنقاذها ونشرها، بل إن هذه الندوة ينبغي أن تذهب بعيدا في حل مشكلات إتاحة كل الوثائق التاريخية للباحثين حيث ما كانت، وصياغة ميثاق جديد للتعاون النشيط بين الباحثين والمؤسسات الوطنية والدولية المتخصصة.

يتعلق الأمر بتجاوز الأساليب التقليدية للإعارة أو تبادل الوثائق المصورة على الأشرطة المصغرة أو الجذاذات الدقيقة، بتأسيس منظمة دائمة، متعددة الجنسيات، ذات رسالة ثقافية تدعمها مباشرة الدول المهتمة وكذلك المؤسسات.

هذه الهيئة التي لن تكون خاضعة للتقلبات المالية والتعقيدات الإدارية لليونسكو ولا للمركز الدولي لدراسة صون وترميم الممتلكات الثقافية (ICCROM) وستكون مهمتها الرئيسية، البحث وتحليل المصادر التي مازالت مجهولة لتاريخ الصحراء والساحل، وإعانة المؤسسات العلمية المحلية، وأصحاب الخزائن الخاصة، على الاضطلاع بترميم المؤلفات المتردية، وترتيبها وفهرستها، والسماح بتصوير مجموعات المخطوطات والوثائق التي نسيتها أو أهملتها الدراسات التاريخية، بواسطة الأشرطة المصغرة. وأخيرا الاضطلاع بنشر أدلة قوائم المصادر أو الفهارس، ونشر متون النصوص القديمة لسكان الصحراء والساحل. وإنه عمل يمكن أن يشغَل أجيالا كاملة من المؤرخين والمستعربين الأفارقة والأوربيين، غير أنه مفيد جدا ورائع من أجل صيانة التراث الثقافي للإنسانية.

ويمكن أن نعود من هذه الندوة راضين إذا نتجت عنها شرارة إرادة طيبة، شكرا لكم على الاستماع إليّ.

خريطة أهم الأماكن الصحراوية التي توجد بها حاليا الخزانات الصحراوية



رسم الخريطة: أتيليو كوديو

تعريبها: المهدي بن محمد السعيدي